باية خوجة لكّال
كلية الآداب واللغات
قسم الترجمة
جامعة الجزائر

أزمة الإنسان في بعض أعمال وليام شكسبير

Abstract:

Shakespeare is a famous playwright known for his deep ideas about Man, life and Universe, subjects which preoccupied him for a long time. In this presentation, he discusses the moral values and their importance in human's life mainly performed through the round characters of such plays as "Hamlet", "Macbeth" and "King Lear". Most of his characters illustrate his own vision and philosophy as concerns ethical and moral dilemmas felt in society, and the amount of conflicts between good an evil, wisdom and negative ambition as well.

أزمة الإنسان في بعض أعمال وليام شكسبير

إذا كانت الفلسفة في القديم تحاول إثارة أسئلة وأجوبة تختصر من خلالها تعقيدات العالم والمعضلات الإنسانية، فإن أعمال شكسبير(1564-1616) تشير إلى استحالة تجاوز هذه التعقيدات التي هي في الأساس صورة لوضع الإنسان ولأسرار حياته المتنوعة والمتناقضة من ذلك ما نراه في بعض أعماله العظيمة مثل: "هاملت"، " ماكبث" و" الملك لير".

أما بالنسبة لـــ "هاملت" Hamlet (1601)، فالنص المسرحي يقدم لنا البطل على أنه شخص مستوحد، ومنفرد ورافض للتواصل، وأن وعيه الذاتي وتأمله الداخلي هما جزء أصيل من طبيعته. يشعر باندفاع كبير نحو ما تمليه عليه طبيعته جاعلا إياها مبدأه الأول، غير أنه يكافح أيضا لإتباع قانون جماعي يفرضه عليه المجتمع وهو غريب عن طبعه، ألا وهو قانون الانتقام.و تتصارع رغبته في أن يكون صادقا مع نفسه وإحساسه بالواجب تجاه روابطه ورفضه إلزام نفسه أمام مما يجعله يصطدم مع الناس يصطدم مع حاجته إلى تنفيذ تلك الالتزامات. ويمثل الإشكال في عذابه الذاتي الذي تمركز فيه الجدل حول العزلة، والذي وصفه البعض بأنه " هم شكسبير الدائم: الإنسان مقيد إلى الأبد، راغب في حيرته إلى الأبد، ولكن غير واجد سعادته الحقة وتحقيق نفسه إلا في الاعتراف بالقيد الذي يصله بالآخرين".

لكن هنا ينصح شكسبير بالصدق مع النفس كطريقة للصدق مع المجتمع وليس كفضيلة قائمة بذاتها تعد بديلا لواجب المرء تجاه المجتمع. ولذلك نجد هاملت يردد باستمرار عبارة "أن نقول :"واحد" وهي دليل على بحثه عن الوحدانية؛ وحدانية الكمال التي لا يجدها حتى في المشهد الأخير، الذي يقوم فيه بفعل اجتماعي، فعل التزام عام يتمثل في قتله الملك

. « Now I am alone »Act II, Scene 2 .

وكلمة واحد تعني الوحدة والعزلة الفردية التي يتوق هاملت إلى تحقيقها، كما تمثل عزلته عن المجتمع وقطع السياق الطبيعي الأمر الذي يعيقه عن أن يكون إنسانا كاملا .فالإنسان عند شكسبير يصبح إنسانا حقا إلا بانتمائه إلى العقد الاجتماعي والرعية السياسية، وينفصل عن الذات بالمعنى الفلسفي.

وهاملت لا يدخل في هذا الالتزام أو العقد حتى المشهد الختامي وبذلك يدخل في علاقة مع مجتمعه. أما في بقية المسرحية فإنه ينخرط كليا في وجوده كذات فلسفية، عازلا نفسه ضمن وعي ذاته المبالغ في نشاطه.إنها عزلة وعي يبقى فيها هاملت حتى المشهد الأخير، وكلامه ينطلق من صعيد داخلي أكثر مما ينطلق أي كلام مألوف في التواصل.

إنه يعي بأن الفرد مسجون ضمن حدود منظوره الخاص، ويميز بصراحة بين العالم كما هو وبين العالم كما يراه.إنه يعلم أن في العالم الخارجي جمالا، ولكنه ليس بالنسبة إليه إلا " حشد من أبخرة كريهة تنبعث منها الأوبئة" (2،2)

"It appears no other thing to me, than a foul and pestilent congregation of vapours" Act II, S 2.

إلا أن عالمه بذلك لا يعينه في النجاة من سجن طريقته في الظن والتفكير، فيصبح الفضاء الخارجي قليل الأهمية بالنسبة إلى فضاء العالم الداخلي الذي يلوث العالم الخارجي كله، بحيث يصبح العالم كله صورة للسجن القائم في الذهن.

وتنعكس وحدة هاملت في أشكال العزلة المتباينة حوله، فأوفيليا (خليلته) قد عزلت بإحكام في عالم جنونها الخاص، كلوديوس (العم القاتل) قتل بجريمته وخوفه من العقاب الأبدي، غرترود (أمه) وقد تمزقت بالجرم وعوقبت برفض هاملت لها، وخيانة اوفيليا إياه تشتد قسوة لأنها انعكاس لصورة خيانة أمه غرترود.

فهذه المرايا كلها تؤكد رؤية البطل للعالم كصورة للذات ومظهرة أن الفرد رغم حسه بالانفراد والعزلة، ليس في الواقع وحيدا في وصفه وأنه أكثر شبها بالآخرين مما يظن.

و يمقت هاملت رؤية الفساد في المجتمع الذي يحيط به، ينفصم ويتعمد توسيع الثغرة بين الفكر والفعل، حتى يصبح الفعل لديه أمرا تزداد صعوبته في التزامه، لأنه يعني انخراط النفس في المجتمع بشروط المجتمع نفسه. فالمسرحية تصور انتهاك الروابط الاجتماعية التي تشكل النظام؛ فالملك الذي ينبغي أن يكون عنوان النظام هو في الواقع مصدر اضطراب وفساد، فتنهك الحياة بالخيانة والقتل. وهاملت رغم رفضه الانخراط الاجتماعي يدرك شيئا من المثل الاجتماعي الأعلى، فهو يكافح طوال المسرحية للإبقاء على ذلك الرابط القائم بين الأب وابنه وهو ما تبقى له من النظام الاجتماعي، لأنفصامه يعد عند شكسبير من أعراض الفوضى الكونية. لكن هاملت يحتفظ بإنسانيته ويتمسك بهذا الرابط الأوحد الذي يحميه من العزلة الكلية والانغلاق المطلق على الذات.فيتحلى بالصبر ليستعد إلى تقرير مصيره بالطريقة التي يتصورها ويؤمن بها، ويظهر هذا العزم في قولته الشهيرة "أن أكون أم لا أكون ؟ ذلك هو السؤال "

"to be or not to be, that is the question" Act III, S1.

يبدو أن شكسبير في "هاملت" موزع بين الإعجاب بالوحدة الداخلية التي يفتخر هاملت بالدفاع عنها في مجتمع كاذب، وبين إدانة الفردية المرتبطة بانهيار القيم الاجتماعية. وشكسبير يبتعد عن إصدار أي حكم في المسرحية، فهو يصور مجتمعا متفسخا،

وانسحاب الفرد واحد منه. لكن وحدة هاملت في الظروف التي وجد فيها هي مصدر نبله ومأساته في آن واحد.

وتناول هاملت من جهة أخرى البحث عن البراءة في عالم مليء بالفساد، فهي دعوة الصغار إلى التمرد على الظروف البشعة والأساليب اللاإنسانية للكبار.فهاملت يملك كل المميزات الإيجابية كانتمائه إلى عائلة مالكة واتصافه بالذكاء والشجاعة وهي صفات ستنـــزع منه انتزاعا فيما بعد لما يقتل أباه من طرف عمه الذي يتربع على العرش محققا طموحه الانتهازي، فيفقد هاملت كل علاقاته الإنسانية مع أبيه القتيل وأمه التي تتزوج من عمه القاتل، وحبيبته التي تخونه وصديقه الذي أصبح عميلا لكلوديوس القاتل. ويمكن القول أن كل الحوارات والمناجاة الصادرة عن هاملت تدين عموما التداعيات الفلسفية لهاملت حول الحياة والموت وأيضا مأساة الإنسان أمام ضميره، مع التركيز على الجانب الذاتي للإنسان.

وقد اعتبر النقاد بعضا من مقاطع هاملت بأنها تمثل تناقضا بين التفاؤل والتشاؤم، لكن التناقض الذي نلاحظه ليس قائما على المستوى الاجتماعي أو التاريخي، وإنما هو موجود في أعماق ووعي البطل هاملت. ويتمثل هذا التناقض في سيطرة مشاعر الحب والحقد والرغبة والمتعة والحزن والأمل، والشجاعة والفشل والغضب على البطل؛ وهي مشاعر نجدها مقترنة في المسرحية بأجواء الدم والغضب والحزن والكآبة، فتجعل من هاملت شخصية دموية حزينة مفرطة في الحزن، الأمر الذي يحاول السيطرة عليه.

فالتراجيديا هنا تحاكي في متعتها وتعليميتها سلوك الإنسان الذي ينبغي عليه أن يسيطر على أهوائه لتجنب دماره فهاملت يعبر عن مشاعر الحزن كقيمة فلسفية تلقننا وتعلمنا كيف ينبغي أن نتجنب الخطيئة (الجريمة) والدمار في نفس الوقت. فهاملت يجد عزاءه في الحزن ويحاول تقبله، لكن شكسبير يجعله من هاملت يعيش تناقضا وصراعا بين نوعين من الحزن، حزن غايته العزاء النفسي، وحزن دائم باق ناتج عن فقدان الذاكرة الذاتية وناتج عن إحساس بالخطيئة. في هذه الحالة يبقى العقل والحكمة هما العاملان الأساسيان لمواساة الحزن والتخفيف من وطأته.

ومن جهة تمثل أوفيليا الوجه الآخر من الحزن متجسدا في الجنون ودمار الشخصية التي لا يستطيع العقل التحكم فيها أو السيطرة عليها. ومن جهة أخرى تمثل شخصية كلوديوس وجرترود الخطيئة الأخلاقية التي يسيطر فيها العقل على المشاعر لأسباب معروفة، والتي هي في النهاية تتدمر وتزول. لذا ينبغي تحقيق التوازن بين العقل والعاطفة وبين المشاعر والحكمة.

فانشغالات هاملت المتنوعة تعكس لنا تعقيد التجربة الإنسانية ،و أن الإنسان يعيش في عالم شاسع مترامي الأطراف مليء بالتناقضات والاختلافات، عالم مليء بالتساؤلات والإجابات المعقدة التي تعكس تعقيد الحياة ووضع الإنسان .لكنها تبقى في نظر شكسبير مرتبطة بالنبل والحكمة الإنسانيين كقوله على لسان هاملت :"و الإنسان ما أروع صنعه، ما أنبله عقلا، وما أقصى حدود قدرته ومواهبه. في الشكل والحركة وما ألبقه وما أروعه في العمل...ما أشبهه بالملائكة...وما أشبهه بالآلهة ..إنه زينة الدنيا..." الفصل 2، المشهد 2.

"what a piece of work is a man ! how noble in reason ...how express and admirable ! in action...how like an angel ...how like a god ! the beauty of the world" Act II, scene 2 (Hamlet) .

Act II, scene 2:

"as so .God by ye : now I am alone"

أما فيما يتعلق بمسرحية "ماكبث" Macbeth (1606) فهي تجسد مأساة ماكبث الذي يضع مصلحته الذاتية وطموحه الشخصي فوق الواجب وفوق المسؤولية الاجتماعية، وتظهر المسرحية الصراع القائم بين غريزتي المجتمع والانعزال في مكبث، بين روابطه مع الإنسانية وبين عالم الذات من شهوات مظلمة مضادة للمجتمع. ويمثل مشهد الساحرات المرآة التي تنعكس عليها صورة ذهن ماكبث وما يحمله في نفسه من شر. ويملك ماكبث القدرة على عزل نفسه عن الآخرين حتى وهو في وسطهم، ويرينا بدايات انقسام الذات التي يتصف بها الإنسان المستوحد:

"إن فكري الذي ليس القتل فيه إلا متخيلا
ليزلزل كياني الموحد إنسانا
حتى ليختنق الفعل في التكهن
وما من حقيقي إلا الذي ليس بالحقيقي"

توحي عبارة "كياني الموحد إنسانا" طموح ماكبث إلى تحديد نفسه بالانسحاب من المجتمع، وتوحي في الوقت ذاته ضياع كيانه الموحد، وكيانه الموحد هنا يعني وحدة الفكر والفعل لديه .

إن الكلمات الأخيرة من الفصل الأول تعبر عن تصلب الإرادة الفردية التي تخون الروابط الاجتماعية، روابط الأمانة والولاء والواجب.

"على الوجه الكذوب أن يخفي ما يعلم القلب الكذوب" الفصل 1، المشهد 7.

"false face must hide the false heart doth know" Act I, scene 7.

إن رؤيته للعالم الخارجي يشوه عالمه الداخلي فيتحول إلى سجن ذهني فيشعر بالحبس والحصار، ويزداد وجوده انغلاقا، ولا يستطيع الخلاص من عالمه الداخلي أبدا، لأنه قطع عمدا التزاماته للعالم المحيط به، فأصبح عاجزا عن النوم تعذبه أطياف الضمير حتى في ساعات يقظته فتزداد عزلته وتتناقص إنسانيته وذلك بقوله

"و عندما اعرف ما فعلت أتمنى لو أنني لا أعرف نفسي"

« to know my deed , t'were best not know my self" Act II, S2.

لكن قراره المبدئي بوضع منفعته الخاصة فوق المنفعة العامة يشتد صلابة ويعبر ماكبث عن هذه المشاعر بعد أن أصبح ملكا، وأصبح قلب النظام الخلقي الصحيح، لكن الذي يتأكد لديه هو انغلاقه على نفسه وانقسامه على ذاته. إن العالم الداخلي يسيطر على ماكبث في جلسة الضيافة التي عقدها فتضطر الليدى ماكبث (زوجته) إلى تذكيره بترحابه بضيوفه، الذين أغفلهم لشدة استغراقه بذاته. فتقول له:

"مولاي صاحب الجلالة إنك لا توجد بالبشاشة وما الوليمة إلا بيع وشراء".

« My Royal Lord ; you do not give the cheer : the feast is sold »

ويشتد ماكبث قسوة وتمحورا في ذاته حتى أصبح الناس ينظرون إليه في اسكتلندة كشيطان وطاغية انعدمت إنسانيته، إنه يفرض عالمه الخاص على العالم العام، إنه يقلب وضع الملك المثالي الذي ينبغي أن تكون فضائله اجتماعية في المقام الأول كالعدالة والصدق والاعتـــدال والكرم والرحمة و التواضع والحنو والصبر والشجاعة والجلد (4،3).

لكن ماكبث يعزل نفسه عن هموم المجتمع، فيسعى إلى تحقيق موته هو أكثر من موت مملكته. فهذه المسرحية تؤكد من جديد أن المجتمع هو الوسيلة الوحيدة الممكنة للبقاء وتحقيق الذات عند الفرد، والفرد الذي يتعمد فصل نفسه عن الكيان الكلي للمجتمع، إنما هو عبث بدون معنى. فرد كهذا سيموت روحيا عندما يقطع نفسه عن جذوره الضاربة في جسد الدولة. إن عبارة "لا تعني أي شيء" تلخص نهاية الوحدة، هذه الحالة التي يبلغ فيها الفرد نقطة اللاإنسانية، إذ يقطع صلاته وروابطه كلها مع البشرية. والرأس المقطوع الذي يظهر في النهاية على المسرح يعلن موت مكثب الجسدي.

وتتناول مسرحية ماكبث موضوع الصراع بين الخير والشر مع التركيز على الشر الذي يظهر منذ الوهلة الأولى في مشهد الساحرات، ثم تتراءى تدريجيا عناصر أخرى للشر كامنه في أعماق وذهن ماكبث وزوجته. وشكسبير هنا، يصور الشر كظاهرة مرضية

معششة في أعماق ماكبث وزوجته يغذيها عامل الطموح وتكمن فضاعة الشر في أعماقه من خلال إرادة الإنسان وما يريد القيام به فيصيب به حتى الأبرياء (عندما يقتل عائلة ماكدوف وأولاده). وقد تشجع الفوضى على انتشار الشر وهي فوضى ناتجة عن انعدام العلاقة بين البشر والله والصنيعة. لما يحطم الشر كل هذه العلاقات بين البشر والظروف الخارجية، فإنه يتحول إلى التدمير الذاتي عن طريق الألم النفس (الذاتي) وبعده الموت.

تصور ماكبث الطموح كوجه من وجوه الشر والخطيئة التي يحاول من خلالها الإنسان تجاوز النظام الطبيعي إلى نظام مغاير يوقعه في بوتقه الشر ويخرجه عن القانون الإنساني الإلهي. فطموح ماكبث إلى العرش الملكي يؤدي به إلى الهلاك والألم ثم الموت.

إن شرا يلد شرا وهذا ما أدى إلى سفك مزيد من الدم. وماكبث يتدرج في الثبات أمام القتل، فحين يأمر القتلة باغتيال بانكو يناجي نفسه بقوله " أن أكون الملك ليس بشيء مهم، ولكن أن أكون الملك وأنا آمن ...هو المهم"

« to be thus is nothing, but to be safely thus , our fears in Banquo stick deep" Act III, S 1.

ويحاول شكسبير أن يركز مرة أخرى على الإنسان وانشغالاته الذاتية مع تجميد العلاقات الإنسانية والاجتماعية. ويظهر ذلك جليا في مسرحيته "الملك لير" King Lear (1606)

التي يصور فيها الملك متخليا عن مسؤوليته الاجتماعية كملك، والمسرحية بمجملها إدانة للدافع المنفرد وأثره المدمر للروابط التي بين الناس وهي تصور الوحدة التي يصر عليها صاحبها، والوحدة المفروضة قسرا على صاحبها كأشد أشكال المعاناة والألم "كل من عانى وحده، عانى الأشد بنفسه" (3،6) . تبرهن الشخصيات في المسرحية على أن الحياة الفردية لا تكتسب مغزاها إلا من خلال الروابط مع الآخرين، وأنها عديمة المعنى إذا انتزعت من السياق الاجتماعي، والحياة التي تقطع نفسها عن علاقتها وروابطها الطبيعية، ستموت روحيا وجسديا. " الملك لير" يؤكد أن المجتمع ضروري ليس فقط للحياة بمعنى البقاء، بل للحياة بمعنى الامتلاء والسعادة والتحقيق الروحي، فالإحساس بأخوة الإنسان للإنسان مهم لوجود الإنسان. فإهمال الروابط الاجتماعية والاتجاه نحو الذات المنفردة، هي مصدر الانشطار والتجزؤ في المجتمع. إن الأدوار الاجتماعية مهمة ويجب الاعتراف بها.

إذا كانت مسرحية هاملت تبدي بعض الإعجاب بانفراد الفرد وتميزه، فإن مسرحية "الملك لير" تمجد الروابط العامة التي تتجاوز التميزات الفردية. فلير يكتسب القدرة على تخطي وعيه الذاتي الفردي، فيتسع له السجن ليصبح العالم كله، ففي سجن

لير، ليس ثمة واحد وحده، بل اثنان وحدهما، وبوسعهما معا أن يطمحا إلى اتساع الرؤيا التي حرم المرء المستوحد منها.

لا، لا، لا، لا:

تعال نذهب إلى السجن
سنغني نحن الاثنين وحدنا كعصفورين في قفص:
فإذا طلبت البركة مني، ركعت
وناشدتك الغفران: هكذا سنحيا،
ونصلي، ونغني، ونروي حكايات قديمة، ونضحك (3،5).

No, no, no, no:
Come let's away to prison,
We two alone will sing like birds i' th' cage:
When thou dost ask me blessing, I'll
Kneel down
And ask of thee forgiveness: so we'll live,
And pray, and sing, and tell old tales, and laugh. **Act 5, scene 3.**

لقد ضيع الملك لير عالمه لكنه أنقذ روحه عن طريق نبله وقوته الذاتية التي تغلب بواسطتهما على قوى الشر مخلصا المجتمع منها وعودة العالم إلى سيرورته الطبيعية بعد مروره بفوضى الأشياء كخيانة الأبناء للآباء، ومعاقبة الأشراف ومباركة الخونة، فالمجتمع يتحدث بالحقيقـــة، والسوي يتصرف كالمجنون والملك متسول، الابن يقتل أباه، والبنت تقتل أختها، وتنحط العلاقات البشرية إلى أدنى من درجة الحيوانات.

وأخيرا، يمكن القول أن شكسبير تناول الإنسان مدركا دواخله وتناقضاته الذهنية والفكرية والنفسية. فالجوانب الغامضة في الإنسان تجعله يتصرف بقوة سرية خارقة تجعل وعيه منفصلا عن إرادته. ولذلك يحاول التركيز على إنسانية الإنسان وعلى نبله وإخلاصه وفروسيته وشجاعته وحبه كأجمل وأسمى صورة يسعى أن يظهر الإنسان عليـــها في هذا الوجود لتحقيق ذاته وكيانه والانسجام مع محيطه ومجتمعه.

ولا ينبغي أن نندهش إذا وجدنا القضايا التي تناولها شكسبير في القرن 16 عشر، قائمة في عصرنا الحديث ومازالت تشكل انشغال واهتمام أكبر أدباء العصر الحديث الذين صوروا الإنسان وما زالوا يصورونه في جميع متناقضاته الداخلية والخارجية وهي تمثل مصدرا أساسيا للاتجاه الحداثي في الفكر والأدب الإنساني .

المراجع:

1- شكسبير – **هاملت متبوع ب: عطيل** – موفم للنشر، الجزائر 1994.

2- شكسبير – **ماكبث متبوع ب: العاصفة** – موفم للنشر، الجزائر 1994.

3- **شكسبير والإنسان المستوحد** - جانيت ديلون- ترجمة جبرا إبراهيم جبرا. درا المأمون للترجمة والنشر .بغداد .1986.

4-**شكسبير في زمانه وزماننا** – ألفريد فرج –الدار المصرية اللبنانية . القاهرة .ط1. 2002.

1- **Shakespeare, Philosophy and literature**; Margaret Collins Weitz-Peter Mang –Publishing –1995-New York.

2- **Studying Shakespeare** –Martin Stephens and Philip Franks- Longman . York press. 1996.

3- **Macbeth**- William Shakespeare- Penguin Popular Classics, London, England 1994.

4- **Hamlet**- William Shakespeare - Penguin Popular Classics, London, England 1994.

5- **King Lear**- William Shakespeare- penguin popular classics-London-England -1994.